المرأة والدولة

في فجر الاسلام

للسيدة الباحثة نابية أبوت
ترجمها وعلق عليها : محمد عبد الغني حسن

— ٣ —

بعد ذلك التصوير الجميل للمرأة العربية واشتراكها في الحياة العامة ، نتنقل الى ذكر بعض نساء من أشهر القبائل في الحجاز. وهنا نرى مؤرخي المسلمين يمطروننا نتفاً هزيلة من اخبارهن من حين الى حين . ولكن امرأة نابهة منهن لقيت عناية منهم ، ولو أن الصورة التي يصورونها بها مصبوغة بسياسة عصرها ومثله العالية . وقد يصورون تلك الصورة أحياناً بما يتفق مع خطة بعض الاحزاب السياسية المتأخرة

واول ما يعرض لنا من هؤلاء النسوة حُبَّى بنت حليل آخر ولاة البيت من الخزاعيين وقصتها المقبولة من كتب التاريخ أن أباها رغب في تزويجها الى قصي القرشي

(في ابن هشام والطبري ان قصيا هو الذي رغب في الزواج منها)

وكان فتى معروفاً بالمغامرة فولدت له اربعة ذكور وبنتين هما تخمر وبارة ولا نعرف من تاريخهما الا ان تخمر بكت أباها[٣٦] حين ادركته الوفاة بشعر رثائي أما الذكور فهم عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي. ومن أسماء مشهورة في نسب قريش وفي تاريخ صدر الاسلام

ولما أشرف حليل على الكبر جعل ولاية الكعبة لابنته حبي ، وسلمها مفاتيح الكعبة التي كانت تردعها أحياناً زوجها قصيا . وقبل ان يموت حليل سلّم المفاتيح الى قصي لتكون ميراثاً لولده من بعده . وأوصى له بولاية الكعبة والقيام عليها — ولكن خزاعة أنكرت تلك الوصية ونازعت قريشاً واضطرتها الى الدفاع عن حقوقها في ولاية البيت[٣٧]

وهناك بعض الروايات المفصلة التي تناقض بعض ما ذكرت عن هذه القصة . فمن المؤرخين من يقول ان حليلاً أعطى ولاية الكعبة الى حبي التي أشارت الى أبيها بعجزها عن فتح أبواب الكعبة واغلاقها ، فوكل ذلك الى أبي غبشان وهو الذي تذكر بعض المصادر أنه كان ولداً له . وبعد وفاة حليل عمد قصي الى أبي غبشان فأكره واشترى منه ولاية البيت بزق من الخمر وبعض من الابل[٣٨]

---

(٣٦) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٩ — ٤٢ (٣٧) ابن هشام ص ٦٨ — ٧٥ وطبقات ابن سعد ج ١ ص ٣٧ والطبري وكتاب الاشتقاق لابن دريد ص ٢٧٦ (٣٨) ابن سعد ج ١ ص ٣٧ والطبري ج ١ ص ١٠٩٤ والمسعودي ج ٣ ص ١١٧

وأيًّا من الروايتين أخذنا فان الدور الذي لعبته حبى يبدو ثانوي الشأن . ويلوح أنها كانت راغبة في تسليم المفاتيح الى واحد من اثنين زوجها أو معينها . ولكنها بعد ذلك لا يرد لها ذكر في المصادر . واذا كان لنا ان نقبل احدى الروايتين فان حبى لم تكن الا ذريعة لنقل ولاية الكعبة من قبيلة خزاعة الى قبيلة قريش

ومن ناحية أخرى اذا رفضنا القصة جملة واحدة فليس هناك ما يمنع من تصديق ما يتعلق بحبى من حوادثها . فانها — وهي ابنة حاكم الكعبة فعلت ما قد تفعله أية امرأة أخرى في مكانها . وان فتى بعيد المطامح نزاعاً الى السيادة — مثل قصي — لا يبعد ان يخطبها الى ابيها فاذا نجح في ذلك فانه يستطيع ان يتوسل بزواجها إلى توطيد قوته وتمكين الامر لذريته

والتاريخ مفعم بحوادث كان الباعث فيها على الزواج سياسيًّا . وعند عرب الجاهلية تحضرنا أمثلة انتقلت فيها السلطة السياسية من بيت او قبيلة الى اخرى عن طريق الزواج . فهناك — على سبيل المثال — قصة بلقيس من الحميريين اخر . وهي قصة تشبه الخرافة . وهناك قصة جذيمة التنوخي الذي زوج أخته برجل من اللخميين الذين تولوا بعده ملك[٢٩] الحيرة

(هو جذيمة الابرش أو الوضاح كان ملكا على الحيرة ستين سنة . وخلفه ابن أخته عمرو بن عدي الذي يعد أول ملك على الحيرة من اللخميين . وقصة زواج الزباء أخت جذيمة من عدي بن نصر مذكورة في كثير من كتب التاريخ كالطبري وابن هشام وياقوت الادب . وقد ذكرت الباحثة أن جذيمة هو الذي زوج أخته عديا ولكن المؤرخين يقولون ان عديا هو الذي تزوجها — برضاها — بعد أن أسكر أخاها جذيمة . فلما أفاق هذا بعث الى أخته يقول : —

حدثيني وأنت لا تكذبيني	أبحر زفيت أم بهجين ؟
أم بعبد فأنت أهل لعبد	أم بحر فأنت أهل لحون

فأجابته : — أنت زوجتني وما كنت تدري وأتاني النساء قبل البنين
ذاك من شربك المدامة صرفا وتجاذبك بي العبا والمجون

والقصة طويلة يحسن الرجوع اليها في مصادرها)

ولكن بغض النظر عن ولاية الكعبة وصيرورتها الى حبى بنت حليل التي يجب ان نعدها خليفة لابيها أو وسيلة لنقل سلطانه — وهي غير محصورة في ولاية الكعبة — فان وظيفة ولاية البيت لم يعهد فيها الى امرأة من قبل . ولكن بعض الباحثين المحدثين يقول ان مفتاح الكعبة كان في يد امرأة عند ما فتح النبي مكة[٣٠] وهم يؤسسون بهذا القول ان المصادر التي اعتمدوا عليها تمثل هذه المرأة صاحبة حق في حمل هذا المفتاح . وفي الحق — على كل حال — كما تذكر كتب السير ان عثمان بن طلحة وهو من ولد عبد الدار بن قصي هو الذي كان قائماً على ولاية البيت زمن الفتح . وتقول بعض المصادر ان عثمان هذا أودع المفتاح

(٢٩) ابن هشام . كتاب التيجان في ملوك حمير ص ١٤٤ . كتاب السيدة زينة أبرز ناحية هذا البحث عن تاريخ العرب القديم والتعريف في المعارف (٣٠) لامنس في كتابه السابق ص ١١٢

أمهُ سلافة لتحفظهُ عندها . وقد طلبه النبي من عثمان فأخذه هذا من أمه سلافة وسلمه الى النبي [٣١] ولم يكن موقف سلافة — كما يقول رجال السير — أكثر ولا أقل من موقف الأم الحانقة التي رأت بعينيها كيف انتقلت هذه الولاية الرابحة من يد ولدها وأسرتها

ولما رد النبي المفتاح والولاية على عثمان بن طلحة — تبعاً لسياسته في مصالحة القبائل وملاينتها — لم نعد نسمع عن سلافة في السيرة ذكراً . واملها لقيت — كما لقيت حبى — اغضاء كثيراً من مؤرخي السيرة من المسلمين . وقد نستطيع ان نجمع من هؤلاء المؤرخين أنفسهم أن المرأة العربية لم تعط ما يجيز لها الاشتراك في الحكومة التي أنشأها قصي في مكة

كانت قريش تقضي أمورها في دار الندوة ، واليها الحجابة والسقاية والرفادة واللواء وهي أمور لا يشترك في الفصل فيها إلاّ الرجال الذين أوفوا على الاربعين أو جاوزوها ، ما عدا نفراً قليلاً ممن اشتركوا فيها وهم دون الاربعين ، واكثر نساء هذه الفترة لا يرد ذكرهن في السير الاّ فيما يتعلق بالانساب . ففي هذا الوقت كما في صدر الاسلام كان النسب من ناحية الأم لا يقل شأناً ولا تقديراً عن النسب من ناحية الآباء

اما اشتراك المرأة في المسائل السياسية في ذلك العصر فلم يصلنا عنهُ إلاّ نتف من هنا ومن هناك . فقد ورد في السير أن عاتكة بنت مرّة زوجة عبد مناف بن قصي وأم كثير من أولاده الذين منهم هاشم والمطلب وعبد شمس اشتركت في حلف الأحابيش [٣٢] وهو الحلف الذي ألف بين قريش وبين بعض العناصر الحبشية في مكة

(تذكر الباحثة هنا ان هذا الحلف كان بين قريش وبين الاحباش في مكة ، والذي استنبطت ذلك من المشابهة بين أحباش وأحابيش . والذي أعرفه انه سمي بالاحابيش باسم جبل في أسفل مكة يقال له حبيش . والتصويب عن كتاب محمد زيد ص ٢٥٥ وعن تعليقات الشيخ محمود سيد الطيطاوي على سيرة ابن هشام ج ١ ص ١١١)

وتكاد تكون المصادر عن تاريخ هذا الحلف وظروفه [٣٣] غامضة . ولهذا ليس من العجب أن يكون دور عاتكة فيه غامضاً أيضاً . ولكن النص التاريخي قد يعني أحد أمرين . فاما أن تكون عاتكة قد مهدت هذا الحلف . واما أن تكون قد اشتركت في الاحتفال به . واول الامرين يبدو بعيد الاحتمال . وأما الثاني فقد يعين على قبوله ماصنعته بعد ذلك بزمن عاتكة ابنة عبد المطلب بن هاشم في حلف المطيبين [٣٤] وقصة هذا الحلف الأخير — حلف المطيبين —

(٣١) سيرة ابن هشام ص ٨٢١ ، وسنقبلدج ١ ص ٦٧ ، ١٨٤ ، ٨٧ واليعقوبي في تاريخه ج ٢ ص ٦١
(٣٢) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢٧٩ ودائرة المعارف الاسلامية مادة حلف (٣٣) لامنس كتابه السابق ص ٢٦٤ — ٢٦٦ (٣٤) دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٣٠٧ والمصادر المذكورة في الدائرة

أن بني عبد مناف عقدوه عند بني عبد الدار حين أجمع الأولون على أن يأخذوا ما بأيدي الآخرين من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة . فرفض هؤلاء أن يعطوهم ما بأيديهم . فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ووضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم فسُمُّوا المطيبين

وفي هذا الحلف اشتركت واحدة من اثنتين من بنات عبد المطلب الست ، فمن المؤرخين من يقول انها أم حكيم ومنهم من يقول انها عاتكة — وسيأتي خبرها — التي أخرجت الطيب من الجفنة وأعدته للاحلاف الذين أخذوا أسهم من ذلك (٣٥) وأيًّا كانت احدى الاختين استحقت شرف الاشتراك في الحلف فان الدور نفسه يبدو قليل الشأن

— ٤ —

نحن لا نعلم شيئاً عن فاطمة بنت عمرو — وهي احدى زوجات عبد المطلب العديدات وأم خمسة من بناته وثلاثة من أبنائه منهم عبدالله وأبو طالب . ولهذا فهي جدة محمد — عليه السلام — وعلي بن أبي طالب (٣٦) وبالرغم من أن أربعة من بناتها صمات للنبي فأننا لا نعرف عنهن أكثر من أسمائهن (٣٧)

(ترد أسماؤهن في كتب التاريخ في مناسبة وثائق لايمان عبد المطلب — قبل أن يموت — بشعر يذكره ابن هشام لأكبر أمل العلم بالشعر له — ابن هشام ص ١٠٦ ج ١)

أما الخامسة فهي عاتكة — التي أسلفنا الحديث عنها في حلف المطيبين والتي تروى (٣٨) عنها القصة التالية :—

جاء رسول أبي سفيان الى مكة ليحمل اليه نبأ مفاجئاً عن خطر داهم يعترض عيره وفيها اموال قريش . وقبل وصول هذا الرسول : بثلاثة أيام

(اسم هذا الرسول ضمضم ، وقد أنفذه ابو سفيان الى مكة ليستنفر قريشاً على النبي وآله ، وكان ذلك قبل غزوة بدر بعدة أيام)

رأت عاتكة في منامها رؤيا أفزعتها ، فجزعت من هذه الرؤيا التي قصتها على أخيها العباس وهذا قصها بدوره على آخرين . وما أسرع ما انتشرت هذه الرؤيا في أحياء مكة وأصبحت موضوعاً طريفاً للحديث . فاغتنم أبو جهل — عدو النبي المبين — هذه الفرصة السانحة

(٣٥) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢٨٨ وج ٢ ص ١٦ (٣٦) ابن هشام ص ٦٩ (٣٧) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٢٧ — ٣١ وابن هشام يذكر مراثي ست منهن لايمن (٣٨) ابن سعد ج ٨ ص ٢٩ وابن هشام ص ٤٢٨ — ٤٣٠

ليسخر بها من العباس قائلاً : يا بني عبد المطلب : أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال : انفروا في ثلاث . فستربص بكم هذه الأيام الثلاثة فإن يك حقًّا ما تقول فسيكون ، وأن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء فانا نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب »

وجاءت الحوادث مطابقة لرؤيا عاتكة التي اعتنقت الاسلام بعد ذلك بقليل وهاجرت الى المدينة . ولم نعد نسمع عنها بعد ذلك أكثر من انها عاشت بعد النبي زمناً

وهناك ابنة اخرى لعبد المطلب ، وهي عمة ايضاً للنبي عليه السلام . وقد لقيت من مؤرخي السيرة اهتماماً بها وتقديراً لها . تلك هي صفية شقيقة حمزة عم النبي وأم الزبير بن العوام . وجدة عبدالله بن الزبير الخليفة المنافس للامويين

(خرج على الدولة الاموية بعد يزيد بن معاوية ودعا لنفسه بمكة واعتصم بها ، وقتل كذلك زمن معاوية بن يزيد ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان الذي أرسل اليه الحجاج فقاتله)

ويبدو ان صفية كانت من السابقين الأولين الى الاسلام في مكة ومن المهاجرين الأولين الى المدينة . وفي موقعة أحد حينما اضطر المشركون المسلمين الى التراجع وقفت صفية ورمحها في يدها ، تضرب الجنود وتصيح فيهم : أهكذا تهجرون[٣٩] رسول الله ؟ ولما انتهت المعركة خرجت فاطمة بنت النبي تضمد جراح أبيها . أما صفية فقد أقبلت على أخيها حمزة بن عبد المطلب وكانت متعلقة به لتنظر اليه ، فقال رسول الله لابنها الزبير : القها فارجعها لا ترى ما بأخيها . فقال لها يا أمه ! ان رسول الله يأمرك ان ترجعي . قالت ولم ؟ وقد بلغني ان قد مثل بأخي وذلك في الله . فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبنّ ولأصبرنّ ان شاء الله . فلما جاء الزبير الى رسول الله فأخبره بذلك قال : خلّ سبيلها . فأتت فنظرت اليه فصلت عليه واسترجعت واستغفرت له . ثم عزاها النبي في مصابها بأخيها قائلاً : ان حمزة لقب بأسد الله وأسد نبيه[٤٠] ، وانه مع الأبرار في الجنة

ونجد لصفية ذكراً آخر في موقف عدائي عند حصار المدينة في موقعة الخندق في السنة الخامسة من الهجرة المقابلة لسنة ٦٢٧ ميلادية . وكان النساء والاطفال في «قارع» وهو حصن حسان بن ثابت شاعر النبي . وكان حسان — الذي دافع عن النبي بقلمه لا بسيفه — مع الجماعة في حصنه . وكان بين بني قريظة من اليهود وبين النبي عهد

(٣٩) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٢٨

(٤٠) ابن سعد ج ٣ ص ٧ — ٩ ج ٨ ص ٢٨ والاغاني ج ١٤ ص ٢٣ وسيرة ابن هشام ٢٦٤

فنقضوه وانحازوا الى ابي سفيان وأصبحوا موضع شكّ من الانصار الذين اتهموهم بنقض العهد . ثم قتلوا فيهم بعد ذلك مقتلة عظيمة

***

وبينما كان النبي مشغولاً باعدائه في واقعة الخندق ، لاحظت صفية وهي في حصن حسان أن رجلاً من اليهود جعل يطيف بالحصن وكانت اليهود قد قطعت ما بينها وبين النبي ، فخشيت صفية أن يدل هذا اليهودي قومه على عورات المسلمين ممن وراءهم من اليهود . فسألت حسان ان ينزل من حصنه فيقتله ، فقال لها حسان : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ! والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ! فلما عرفت منه جبنه احتجزت ثم اخذت عموداً ونزلت من الحصن الى اليهودي فضربته بالعمود حتى قتلته [٤١] . ومن المؤرخين من يذكر أنها ضربته بسيف

وفي مشهد آخر نرى صفية تظهر في موقف يخالف ما نعرفه عن صفية المقاتلة في الحوادث السابقة وكان ذلك في غزوة خيبر . فلقد خرج قبل الموقعة رجل من اليهود يقول : هل من مبارز ؟ فخرج اليه الزبير فاندفعت صفية مذعورة الى النبي معلنة خوفها على قتل ولدها . فقال لها النبي . بل ابنك يقتله ان شاء الله . وشاء الله ذلك وقتل اليهودي [٤٢]

ووزع رسول الله مغانم خيبر وأموالها فأدركت صفية منها أربعين وسقاً . وأدركت أربعين وسقاً كذلك عمتهُ أميمة التي كانت أمًّا لزوجته زينب بنت جحش [٤٣]

وآخر ما ترويه السيرة عن صفية هو ظهورها مع فاطمة في حضرة النبي وهو في مرضه الأخير قبل ان ينقل الى منزل السيدة عائشة . فلقد التفت اليهما النبي قائلاً : يا ابنتي فاطمة ، ويا عمتي صفية ، اعملا ما يرضي الله عنكما فان محمداً لا يغني عنكما من الله شيئاً [٤٤]

ولما ماتت عليه السلام — رثتهُ صفية كما رثتهُ أختاها « أروى » و « عاتكة » . ورثاه كذلك عدد من النساء والرجال [٤٥] منهم أبو بكر والشاعر حسان بن ثابت . وماتت صفية في خلافة عمر بن الخطاب [٤٦]

(كانت صفية شاعرة فصيحة مفوهة عند العرب ، وأخواتها شواعر كذلك . ولقد رثت أباها عبد المطلب قبل أن يموت حينما أحب أن يسمع رثاء بناته فيه . كما رثت النبي بشعر رقيق جاء منه : —

---

(٤١) ابن هشام ص ٦٨٠ وابن سعد ج ٨ ص ٢٧ والاغاني ج ٤ ص ١٦ والاصابة ج ٤ ص ٦٧١

(٤٢) ابن هشام ص ٧٦١ (٤٣) ابن سعد ج ٨ ص ٢٧ وابن هشام فيه قائمة كاملة بأسماء الرجال والنساء الذين أسلموا من غطفان (٤٤) ابن سعد ج ٢ ص ١٧ و ٣٦ وميور ص ٤٩٦ (٤٥) ابن سعد ج ٢ ص ٩٣ — ٩٧ (٤٦) ابن سعد ج ٨ ص ٢٨

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا وكنت بنا برا ولم تك جافيا
وكنت رحيما هاديا ومعلما ليبك عليك اليوم من كان باكيا
فدى لرسول الله أمي وخالتي وعمي وخالي ثم نفسي وماليا
فلو ان رب الناس أبقى نبينا سعدنا ولكن أمره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحية وأدخلت جنات من المدن راضيا

ومن شعرها في الفخر والحماسة : —

ألا من مبلغ عني قريشا فهم الامر فينا والذمار
لنا السلف المقدم قد علمتم ولم ترقد لنا بالغدر نار
وكل مناقب الاخيار فينا وبعض الامر منقصة وعار

اما عائكة فقد سبق الحديث عن الرؤيا التي رأتها وكانت شاعرة.
ومن أرثها في الحماسة : —

سائل بنا في قومنا وليكفف من شر سفاهه
فينا وما جمعوا لنا في كل باق شفاهه
فيه السنور والقنا والكبش يلمع قراعه
بمكاظ يعشى الناظرين — اذا هو لمعا — شعاعه
فيه فتلنا مالكا فرأ واسلمه رعاعه
ورجعنا عاذرينه بالقاع تنهب رباعه

المترجم — عن الدر المنثور ص ٢٦٢ ، ٣٢٠)

— ٥ —

ومن النساء اللائي لقين عناية خاصة من المؤرخين الاسلاميين اثنتان من أسرة ابي سفيان الذي كان رئيساً لقريش في زمن الرسول : —

الاولى : زوجته هند بنت عتبة التي عارضت النبي والدين الجديد

والثانية : ابنته من غير هند — رملة التي كانت من السابقات الى الاسلام وتزوجت بعد ذلك نبي هذا الدين

ولا نعرف على التحقيق متى ولدت هند ولا من اول أزواجها[٤٧] ولا متى كان زواجها . ولكننا نعرف أنها نسل عبد من شمس من قريش ، واول ما نلقاها مع زوجها الفاكه بن المغيرة المخزومي عم خالد بن الوليد[٤٨] الذي ثقف فيما بعد سيف الاسلام

(٤٧) ابن سعد ج ٨ ص ١٧٠ وهو لايذكر زوجها فكيه بل يقول انها تزوجت حفص بن المغيرة فحملت منه ابان . وقد ذكر ابن قتيبة زواجها من حفص في كتابه العيون ج ١ ص ٢٨٣ . والتعقب التاريخي يجعل هذا الزواج سابقاً لزواجها من فكيه الا اذا كان هناك اختلاط بين فكيه وحفص (٤٨) الاغاني ج ٧ ص ٢٦